# القضية الفلسطينة ومأزق التصفية

**د. رءوف عباس**

الإثنين، 9 يوليو 2007

كانت فلسطين وسوف تظل دائما قضية مصرية، إستقر ذلك فى ضمير المصريين منذ بدأت الصهيونية تنشب مخالبها فى الشعب الفلسطينى وتزحزحه عن أرضه بمزاحمته فيها ثم الإستيلاء عليها. حقا لم يكن هناك وعى بخطورة وعند بلفور عند صدوره عام 1917، ولكن تتبع الشعب المصرى للصراع الذى دار على أرض فلسطين فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضى، والذى بلغ ذروته بالثورة الكبرى عام 1936، لفت أنظار المصريين إلى الخطر الداهم الذى أصاب نافذة مصر على المشرق العربى، فكان ذلك التأييد غير المسبوق للثورة الفلسطنية، وكان ذلك الموقف السياسى التاريخى لمصطفى النحاس باشا عندما أعلن رفض مصر لوجود كيان صهيونى على حدودها الشرقية، لأن ذلك يقطع الإتصال بين مصر والمشرق العربى.

وكان الإجماع الشعبى المصرى على رفض قرار التقسيم عام 1947 والدور الذى لعبه المجاهدون المصريون فى الدفاع عن فلسطين، ثم ماحدث من توريط الدول العربية فى حرب فلسطين 1948 الذى كانت بريطانيا تعلم نتيجته مقدما بحكم البون الشاسع فى ميزان القوة العسكرية بين القوات الصهيونية وجيوش الدول العربية مجتمعة. أعدت الأرض لقيام الكيان الصهيونى، وكان الإعتراف العربى ضرويا، وكان دخول الدول العربية الحرب مقدمة لإعتراف رسمى بإتفاقية صلح، أو غير رسمى بإتفاق هدنة، وهو ما حدث بالفعل.

عاش جيلنا هذه النكبة التى أنضجت وعيه السياسى قبل الأوان، وجعلته يدرك الرابطة الوثيقة بين الإستقلال الوطنى فى مصر وتحرير فلسطين. ولكن إختفى الوجود الفلسطينى، أو مابقى من الكيان الفلسطنيى، عندما ضم الملك عبد الله الضفة الغربية إلى الأردن ليزيد من مساحة مملكته المصطنعة بإتفاق تام مع الكيان الصهيونى الوليد، ولم يتبق من فلسطين سوى كيان رمزى فى غزة حمل إسم حكومة عموم فلسطين (تحت الإدارة المصرية) شغل رئيسها كرسى فلسطين فى جامعة الدول العربية وإقتصر دورها على إصدار وثائق سفر فلسطينية للاجئى غزة وأهلها.

ظل تحرير فلسطين وإسترداد الكرامة العربية يمثل موضوع الإنشاء المفضل عند مدرسى اللغة العربية فى مختلف البلاد، وموضوع قصائد الشعراء، وأحد مكونات الخطاب السياسى عند الأحزاب والجماعات السياسية وعند الحكام، ولكن لمجرد الإستهلاك المحلى. ولم يكن أى من الساسة العرب يضع على أجندته خطة ما تتعلق بفلسطين، ولم يتجاوز النضال من أجل فلسطين حدود المطالبة بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة بشأن التقسيم وعودة اللاجئين إلى ديارهم أو تعويضهم عنها. وكان الفرق شاسعا بين ماجاء بالخطب العنترية وما حدث فى الإتصالات السرية مع الكيان الصهيونى.

جمال عبد الناصر هو الذى لعب الدور الأساسى فى إحياء الكيان الفلسطينى وتكوين منظمة التحرير الفلسطنية وجيش التحرير الفلسطينى. ولكن الأنظمة العربية راحت تدس أصابعها فى الحركة الوطنية الفلسطينية، فى وقت كانت فيه الصهيونية والغرب يعدان العدة لنكبة يونيو 1967، وتوسع هذا الدور التخريبى مع ظهور فتح وفصائل المقاومة الأخرى وصاحب هذا المرض منظمة التحرير منذ تولى رئاستها ياسر عرفات.

وهكذا قدر لجيلنا أن يعيش النكبتين : نكبة 1948 ونكبة 1967، وكنا نتذرع بالأمل فى أن تجتمع كلمة الأمة على إعادة فلسطين إلى موقعها على خريطة الكيانات السياسية بالمنطقة، وأن يكون إجتماع كلمة الفلسطينيين أنفسهم على تحقيق هذا الهدف حجر الزاوية فى أى عمل يتم فى هذا الإتجاه. غير أننا عشنا حسرة غياب وحدة الهدف، وغياب الوعى، ثم تفرق الكيانات العربية. وكم تمنينا على الله أن يقينا شر البقاء على قيد الحياة حتى نرى نكبة جديدة، فإذا بنا نشهد نكبة يونيو 2007.

سمعنا من قادة الإخوة الأعداء فتح وحماس عشرات التصريحات التى تعلن أن الدم الفلسطينى خط أحمر، فإذا بهم يستحلون الدماء ويتبعون نهج الصهاينة فى التنكيل بإخوانهم وهدم البيوت ونزع العلم الفلسطنينى والسجود فى الشوارع "شكرا لله" والله بريءٌ مما يفعلون والأنكى من ذلك وصف أحدهم لما حدث بأنه شبيه بفتح مكة.

تابعت المشهد الحزين عندما كنت فى لندن الشهر الماضى بألم شديد، وكان من الطبيعى أن يصاحب عرض هذه المشاهد تعليقات تصف الطرفين بالهمجية، وتلتمس العذر للكيان الصهيونى : فإذا كان هذا شأن الفلسطينيين مع بعضهم البعض، فلماذا تلام (إسرائيل) على ماتفعله بهم ؟! تعليق آخر من خبير بالشرق الأوسط رأى فيه أن ماحدث بدد مشروع إقامة الدولة الفلسطنية ربما حتى نهاية القرن الحالى. تركيز على صور الفلسطينيين الفارين من غزة بعد "فتح مكة" رجالا ونساء شيوخا وأطفالا حشروا فى ممر على شكل نفق دمر المجاهدين الأبرار سقفه، وجلس أولئك التعساء فى هذا "البرزخ " دون طعام أو شرب أو دواء، ثم يطل علينا المراسل البريطانى الذى خف إلى هناك من (إسرائيل) ليبشرنا أن سيارات الإسعاف التى تحمل نجمة داود هرعت لتقديم المساعدات الإنسانية لأولئك اللاجئين الجدد ولكن دون أن تسمح لهم بالعبور، يا لإنسانية الأعداء!!

تذكرت بدايات الصراع المسلح بين أمن السلطة وحماس قبل "فتح مكة" بما يزيد على شهر، ولقاء لمصطفى البرغوثى على إحدى الفضائيات يقول فيه : لاأدرى لماذا هذا الإقتتال بين الأشقاء ؟ هل تساوى السلطة ما يراق من دماء؟ لقد رسم لنا شارون كرسيا على ورقة وتركنا نتصارع معا من أجل الجلوس عليه. ذكرتمقالاً قرأته على أحد الموقع الإلكترونية كتبه ناشط إسرائيلى من أصل هولندى يدعى ران ها كوهين، يعمل مدرسا فى إحدى الجامعات الإسرائيلية، ومن مؤيدى حقوق الشعب الفلسطينى، كتب يقول : إن غزة سجن كبير لاسقف له، حشر الفلسطينيون داخله، وجاءت سياسة إخلاء غزة التى نفذها شارون لتجعل الفلسطينيون يتصارعون على السلطة كما يفعل السجناء داخل الزنزانة لتأكيد مكانة أحدهم على غيره من السجناء، وإذا ضاق السجان ذرعا بما يثيره السجناء من ضجيج، دخل لتوجيه ضربة موجعة إليهم. ويقول عن الضفة الغربية إنها قد تحولت بفضل الجدار العازل والمستوطنات والحواجز المتعددة إلى مجموعة من الزنازين الصغيرة التى تسهل (لإسرائيل) إلتقاط أو تصفية كل من يسبب لها القلق حتىذُكِر الفلسطينيين أنهم فى قبضتها، ويعجب "لسذاجة" محمود عباس ورجال السلطة الوطنية لظنهم أن بالإمكان تغيير هذا الواقع الذى لاأمل فى تغييره طالما كانت الولايات المتحدة تعمل على خدمة أهداف السياسة اللإسرائيلية، وطالما كانت (إسرائيل) لا تقبل بمثل هذه الدولة والكلام لازال لكوهين.

وكان المشهد الذى رأيته فى القاهرة مقبضا محزنا. إنقسمت الصحافة بين مؤيد لغزوة حماس ملتمسا العذر لفاتحى مكة نظرا لما كانت عليه السلطة وجهازها الأمنى من فساد وتآمر مع الأمريكان. وهناك صحف إتخذت جانب الموقف الرسمى المؤيد للسلطة ضد حماس. ناهيك عن الصمت التام تجاه مأساة الفلسطنيين العالقين على منفذ رفح فى العراء دون طعام أو ماء أو دواء، لايسمح إلا للموتى منهم بالدخول ليدفنوا فى ثرى غزة.

وإلتزمت الصحافة المصرية الصمت -إلا فيما ندر- عن تناولُ ب القضية وجوهرها: أين فلسطين من هذا كله؟ وكيف تُختزل القضية فى التعبير عن مصالح هذا الفريق أو ذلك، وإغفال ما لم يجر من آثار تصفوية، والبحث عن مبررات النكبة الجديدة. أكلت القطة لسان جامعة الدول العربية على الغداء ولسان منظمة الدول الإسلامية على العشاء، وغاب ما تتعرض له القدس من تهويد ممنهج عن البال ودخل بين طيات النسيان، وثارت الأمة عن بكرة أبيها ضد ملكة بريطانيا التى كانت عظمى، لأنها منحت سلمان رشدى مرتبة "فارس": كيف يصبح سلمان رشدى فارسا دون إعتبار لمشاعر المسلمين؟!

تلقيت عددا من المكالمات التليفونية من أبناء الموجة الجديدة من الصحفيين الذين يعيشون على إلتقاط المعلومات ويعافون القراءة، ومن بعض الإذاعيين ممن هم على شاكلتهم، سألنى المتحدث عن رأيى فى إهانة الإسلام، وإقدام ملكة بريطانيا على منح سلمان رشدى لقب "سير" وما رأيى فيما يجب عمله ردا على هذه الفعلة الشنيعة؟ وهل أؤيد مقاطعة البضائع البريطانية حتى تعرف الملكة أن الله حق؟ هكذا يتم إلهاء الرأى العام بمثل هذه التفاهات حتى لايدرك حقيقة ما يدبر لفلسطين.

ما حدث هو بالعربى الفصيح تصفية نهائية لقضية فلسطين، ووضع نهاية (منطقية) لفكرة الكيان الفلسطينى، فما دام الفلسطينيون لا يستطيعون التوصل إلى إجماع على صورة التسوية النهائية، وما دام يأكل بعضهم بعضا، فلا بأس من إغلاق هذا الملف بتنفيذ (وليس طرح) حل "عقلانى" يحصل بموجبه عبد الله الثانى على ما بقى من كانتونات الضفة بالإضافة إلى ما ضمها من قبل جده عبد الله (الأولانى)، ويعود الأمر إلى فكرة الفيدرالية الأردنية الفلسطينية، والعود احمد.ولتُرم غزة فى حِجر الدولة المصرية فإذا شاءت جعلت منها حكومة فلسطين بعد أن تختنق دولة "فاتحى مكة" تحت قبضة الحصار أو نتيجة الصدام مع الجهاد والقاعدة وهو أمر غير مستبعد.

ولما كان أداء النظم الثلاثة المصرى والأردنى والسعودى أيام عدوان (إسرائيل) على لبنان فى الصيف الماضى متناغما مع موقف الكيان الصهيونى وأمريكا، فلا يعدم الأصدقاء صيغة مناسبة للقبول بالتسوية النهائية المقترحة، ويعيش الجميع فى تبات ونبات، ولكن مثل هذه التسوية التعيسة "لا تنجب صبيانا ولا بناتا".

إذا كان الأخ أبو مازن وبطانته يظنون أنهم سوف يحصلون من (إسرائيل) على مكاسب تفتح الطريق أمام إقامة الدولة الفلسطينية فى الضفة وغزة، فقد أساءوا قراءة الواقع الإقليمى والدولى، ولن يحصلوا من أمريكا و (إسرائيل) إلا على ما يمنعنى الحياء من ذكره.

وإذا كان فاتحو مكة يظنون أنهم سيحصلون على ما يبغون بمساعدة من صنعوهم من قبل لشق الصف الفلسطينى، ويراهنون على بعض العلاقات الإقليمية والأوروبية فهم واهمون، لأن المتاح هو القبول بالتسوية الصهيونية، ولن يطول سكوت نقيضهم "الجهاد" وجيش الإسلام فإن عاجلا أم آجلا سيدخل فاتحو مكة فى مواجهة مع هذين الفصيلين، ولا أظن أن الدولة المصرية ستظل بمنأى عن مثل هذا الصراع.

يجب أن يدرك الفلسطينيون خطورة الظرف التاريخى الذى ينذر بتصفية القضية لصالح الكيان الصهيونى، وأن يعملوا على إحياء المرجعية السياسية لحركة التحرر الوطنى وأن يصوغوا برنامجا يتوافق مع ظروف المرحلة يجمع بين المقاومة المسلحة الموحدة والعمل السياسى الواحد، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال جبهة وطنية تضم الجميع دون تمييز أو إقصاء ويتطلب ذلك إعلاء المصلحة الوطنية الفلسطينية على المصالح الشخصية أو الفئوية الضيقة ويجب أن يستقل العمل الفلسطينى الوطنى عن روابط التبعية الإقليمية والدولية، وأن يكون لفلسطينيى الشتات دورهم الفعال فى العمل الوطنى.

ولايعنِ ذلك إقتلاع الحركة الوطنية الفلسطينية من إطارها العربى وإنما يكون دور الأحزاب والمنظمات السياسية (وليس الحكومات) العربيةمساعداً على التلاقى والتوافق بين الأطراف الفلسطينية، ولا يتجاوز ذلك إلى التدخل والوصاية. ويبقى الأمل فى جيل جديد من الفلسطينيين يفرز قيادات جديدة لاتحمل جراثيم تلك التجربة التاريخية المريرة.